مقابر الموتى الأحياء

«هائمون.. ذائغون.. شاردون.. هكذا يبدون.. كالموتى الأحياء».. لم أقصد تلك الخرافة التي برعت في تقديمها كاميرات مدينة هوليوود السينمائية، ولكنها الحقيقة المفزعة التي خلفها ذلك الشيء في أعماقنا، تمكن أخيرا من احتلال أجسادنا، لم يعد لخلايانا القدرة علي الانصياع لأوامر عقولنا، فراحت تتخبط هنا وهناك كالتائهة، اصطدمت بجدار صلب، رفض أن يفسح لها الطريق، كطفل صغير سقط علي الأرض يبكي، ومن خلفه اندفع أطفال المدينة يسقطون فوق جسده، راح يعاقب الجدار بإحداث فوضي هنا وهناك، وعندما جاء الطبيب أخبرنا أن النار تقضي علي الفوضى، فعكف علي إشعال ما أحدثه الطفل، يوما بعد يوم، ماتت الروح وبقي الجسد واضحي شبحا، يسير في شوارعنا كالموتى الأحياء.

●●●

«هدير».. فتاه كأي فتاه علي سطح هذا الكوكب، ولكنها ليست كمثل أي فتاه أخري تعيش بيننا، للوهلة الأولي تظن أنها عجوز طاعن في السن، وما أن تقترب منها تكتشف أنه ظن من

النـوع الأثيـم، فتـاة لـم تتعـدي العشـرين مـن عمرهـا، رغـم ذلـك تظنهـا في السـبعين، وجـه لـم يعـد سـاطعاً، عينـان غائرتـان ذابلتـان، خـدان مسـطحان متهـدلان، وشـفاه جافـة حُرمـت البسـمة، عجـزت قدماهـا عـن حمـل جسـدها الهزيـل، كشـجرة في يوم عاصف ارتعشـت سـاقيها، كجلمـود صخـر خـر جسـدها الضئيـل ارضًـا، ليُسـرع المـارة بحمـل تلـك التـي كانـت يومًـا شـمعة انطفـئ بريقهـا.

صبـاح كئيـب، دائمـا مـا تقـول هـذا، فـكل شـروق شـمس هـو يـوم حزيـن، كـم حلمـت أن تبيـت ليلـة بـلا صبـاح، لكـن الديـك دائمـا مـا يعاندهـا ويُطلـق الصيـاح، لتبـدأ رحلتهـا كل أربعـاء مـع الألـم، تسـتقل قطـار الشـرق إلـي القاهـرة، إلـي مبنـي اعتـادت أن تصـرخ فيـه بـلا صـوت، أن تبكـي بـلا دمـوع، تشـاطر قرنائهـا حيـاة الموتـى، تعانـد ذاك الطفـل في أعماقهـا، تـارة تنجـح مـع صغيرهـا، وتـارة يكسـرها بيديـه الضئيلتـين.

طابـور طويـل لا ينتهـي، تقـف هديـر انتظـارًا لجلسـة الكيمـاوي، لا تـدري أهـو عـلاج، أم قاتـل أخـر ينهشـها، فقـد أضـاع هـذا الشـيء هويتهـا، أخفـي معالـم أنوثتهـا، لـم تعـد تلـك الفتـاة التـي كانـت منـذ سـنوات، حتـي صـورة البطاقـة المشـوهة أضحـت أكثـر منهـا جمـالاً، صـارت تخبـئ كل المرايـا في منزلهـا الصغيـر، لـم تعـد تسـير بجـوار الفتاريـن، كانـت تخشـي أن تـري صورتهـا فتفـزع، دائمـة الشـرود،

قسمات وجهها لا يحمل سوي هموم الدنيا وما عليها، ما جعلها أكثر مرتادي ذلك المبني إثارة للاهتمام والشفقة، بشكل جعلني أشعر أن وراء هدوءها وصمتها وتنهداتها التي لم تتوقف أشياء كثيرة، ورغم ذلك تتواري عن الأعين حتي لا يري أحدهم ما فعله ذلك الخبيث بجسدها الضئيل.

«درست الحقوق في بلاد يضيع فيها الحق.. أفهموني أنني سأحقق العدل فاختل كفتي ميزانه».. بضع كلمات سمعتها تهمس بها الفتاه حينما حاولت أن أتودد إليها، لم تنظر إلي، اخفت وجهها عني، ازدادت انكماشا وكأنها تخجل من شيء ما، لم أتفوه بكلمة، احترمت ما فرضته علي نفسها من عزلة، وقفت صامتًا، بين الفينة والأخرى تلتقط أذني بضع كلمات مبعثرة، «هما عارفين أنه مفيش فايدة.. يجيبوني من طنطا عشان يدوني أمل.. والكيماوي جبار، قاتل، بيموتني حته حته، ويسيب السرطان حر طليق»، أعياها الإنتظار في طابور يبدو أنه لا ينتهي، فعادت برأسها إلي الوراء لتستند علي جدار المبني...... ورأيت وجهها، بقايا أنثي.

وكأن ثعباناً قد لدغها، انتفضت فجأة، وكأنها أدركت إنني أحملق في وجهها، لم تكن تريد ذلك، إلا إنها نظرت إلي نظرة جعلتني أشفق عليها، ثم بدأت تتمتم من جديد بعباراتها المبعثرة:

«إنت عارف يا اسمك إية.. أنا بسافر من طنطا للقاهرة كل أسبوع مش عشان أخف من السرطان.. أنا عارفة أن مفيش أمل.. أنا بسافر عشان اخرج أشوف الدنيا، أقابل ناس تانيه، أشوف وشوش جديدة»، التفتت «هدير» إلي وكأنها تناست خجلها، تنهداتها المتقطعة، ضربات قلبها المسموع، ينبئان عن صعوبة ذلك، لكن يبدو أنها تريد أن تواصل الحديث، «الصدفة كانت بدايتي والجهل والإهمال كتبوا نهايتي.. هل تصدق أن زلة قدم أصابت كتفي بورم سرطاني»......

«إذا كنت تبحث عن قصة يا بُني، تتبع الإهمال.. قصتك دائما خلف أحد المهملين».. منذ الوهلة الأولي لدخولي عالم صاحبة الجلالة، لم أسمع سوي تلك العبارة الخالدة، تلك العبارة التي مازلت أري واقعيتها في كل قصة كتبتها طيلة ثلاثة عشر عام، واليوم تقف «هدير» مثالاً حي لمصداقية قائليها، فزلة قدم طفيفة أصابت كتفها الأيمن بورم طبيعي، ولكن أحفاد «أبقراط» في معهد طنطا للأورام كان لهم رأي أخر، قاموا باستئصال الورم دون معالجته بالكيماوي، ثم ودعوها مهنئين بالشفاء، ويوم بعد يوم، ينمو ورم جديد، بل وينتشر في جميع أنحاء الكتف، ووصل إلي حد أكل عضلات الكتف الذي أصابه العجز.

«بينـي وبـين الإهمـال قصـة غـرام يـا سـيدنا».. هكـذا أجابتـي تلـك الفتـاة المسـكينة، قالـت عبارتهـا ضاحكـةً، بانـت نواجذهـا للمـرة الأولـي، وكأن اللؤلـؤ صفـف بـين فكيهـا، لوهلـة ظننـت أن وجههـا الحقيقـي قـد لاح لناظـري، وراح عـن عينـي غشـاوة شـحوب وجههـا، وعـادت بنـت العشـرين لبهائهـا وصفائهـا مـن جديـد، حتـي خُيـل إلـي أن هـذا الإهمـال حبيـب قـديم أو عشـيق راحـل، فتلـك الشـمعة التـي أذابتهـا النـار لـم يكتفـي أحفـاد «أبقـراط» في طنطـا بإصابتهـا بالخبيث، ولكنهـم أضافـوا لهـا في القاهـرة نكهـة الكبـد الوبائـي، كانـوا يدركـون أن هـذا مـا ينقـص تلـك الفتـاة.

كالفـرق بـين الربيـع والشـتاء تحـول وجـه الفتـاة مـن وجـه صحـو صبـوح إلـي وجـه مكفهـر ملبـد بالغيـوم، عـاد الآسـي والألـم يحفـر معالمـه عليهـا مـن جديـد، لـم ترغـب في أن تعيـش البقيـة الباقيـة مـن حياتهـا وحيـدة منبـوذة مـن الجميـع، لذلـك أخفـت سـر إصابتهـا بالوبـاء الكبـدي عـن اقـرب النـاس إليهـا، كانـت تعلـم أن مشـهد النهايـة قـد اقتـرب، وأنـا أيضـاً أعلـم ذلـك، وأنـا اكتـب تلـك الكلمـات هـي الأن ترقـد تحـت التـراب، نسـيت ذلـك المسـخ العجـوز الـذي أكلـه الـورم، لا أتذكـر منهـا سـوي ذلـك الوجـه الصبـوح الـذي ظهـر للحظـات، وفي مخيلتـي تلـك النواجـذ وصفـي اللؤلـؤ، وعـين تذكـرت لونهـا الأن، خضـراء تسـر الناظريـن.

●●●

لا يمكن علي الإطلاق أن تترك هذا المبني المخيف قبل أن تلقي نظرة علي طابق البراعم، البعض يطلق عليها جنة الأطفال، والبعض الأخر يطلق علية جناح العصافير، عن أي جنة وآي عصافير يتحدثون، عصافير بلا أجنحة أم جنة تحولت إلي جحيم، فنظرة واحدة إلي وجوههم ستجعلك تدرك أن الجنة اكفهرت وتلبدت بالسواد، والعصافير سقط أجمل ما فيها.

«يا بنات يا بنات يا بنات اللي ماخلفش بنات.. ماشبعش من الحنيه ولا داقش الحلويات».. ما أن تخطو قدميك ذاك الممر المُظلم، حتي يتناهى إلي مسامعك ذلك الصوت الملائكي، صوت للوهلة الأولي تظن أنه آتٍ من أعماق وادي سحيق، أو من جوف كهف عميق، عبثاً ألتف حول نفسي بحثاً عنه، لا أدري من أين يأتي صوت الكروان هذا، خلف أحد تلك الأبواب المُطلة علي الممر حتمًا يئن ملاكي بصوت شّجن، ببطء تحركت قدماي، لا تعلم إلي أين، فجميع الأبواب مغلقة، عدا باب واحد في أخر الممر، لا أعلم لماذا لم انتبه إليه، بصيص من الضوء يعافر لكي يتسلسل من خلال شق صغير، أسرعت الخطى وقد أيقنت أن خلفه كرواني الحزين، وقفت أمام الباب مشدوهًا، إنها غرفة الألعاب إذا، هكذا حملت لافتته، اختلست صاحبة الصوت الشّجن ما بين الجلسة والأخرى لتلهو قليلاً.

بأصابع مرتجفة مددتُ يدي، برفق دفعته، حرصت علي أن لا يُصدر صوتًا يُزعج هذا الملاك الحزين، رويدًا رويدًا لاح خلف الباب جسدها الضئيل، تمسك بين يديها لُعبتها المفضلة، عروسة جميلة، تحتوي بكفها شعرها الذهبي، وباليد الأخرى تمشطه بمشط صغير، كانت كأم صغيرة تعتني بطفلتها، تصنع من شعرها ضفائر رفيعة، ثم تربط كل ضفيرتين بشريط أحمر، لم تنقطع عن الغناء، لم تلحظ وجودي، لم ترفع عينيها عن عروستها الأثيرة.

كجلمود صخر لم أتحرك ساكنًا، فقد هالني ما رأيت، فتاة صغيرة لم تتعد السابعة ربيعًا، هزيلة الجسد ترتدي قميصًا أخضر، تهندم شعر عروستها، في حين لا يحمل رأسها شعرة واحدة، أسقطه الكيماوي بغدره المُعتاد، لم أشعر أنها توقفت عن الغناء، ولكنني انتبهت إلي إنها تستدير إلي، رأيتها، طفلة كأجمل ما يكون، بيضاء البشرة بُنية العينين، لم يسلبها اختفاء شعر رأسها وحاجبيها وأهدابها فتنتها الطاغية، تسيل الدموع علي وجنتيها الورديتين أنهارا، لم تنطق ببنت شفه، فقط راحت تمسح شعر عروستها، وهي تقول بصوت خافت، باسم، «شوفت شعر عروستي يا عمو.. عملتلها أحلي ضفاير.. ولما شعري يرجع زى الأول هعرف اعمل لنفسي ضفاير».

عادت الطفلة لغنائها من جديد، تجاهلت وجودي أو تناسته لم يعد هذا هو المهم، فما شغلها عني سرق البقية الباقية من عقلي، راحت تلك الطفلة التي مازلت أجهل أسمها تخاطب عروستها ببراءة تقطر دمعاً، «ماما أنا هنا ليه.. وشعري راح فين.. طب هيرجع تاني ولا كده خلاص.. عاوزة اعمل ضفاير زى عروستي.. راحت فين ضفايري يا ماما»، أمام تلك التساؤلات المشروعة لم يعد بمقدوري أن أتفوه بكلمة واحدة، فتلك طفلة لم تدرك بعد أنها تتعايش مع مجرم أثيم، وحش فتك ببراءتها وحرمها أجمل سنوات عمرها، بل حرمها عمرها كله، فقد ماتت فجأة ودون سابق إنذار، ماتت دون أن يجيبها أحد علي تلك التساؤلات، ماتت دون أن تعلم أين ذهبت ضفائرها..................

●●●

لم يعد يهتم بعد أن رأى بعينه نفور أولاده وزوجته